



د. رشدى سعيد فى عيد ميلاده الثمانين:

عن النيل.. وتوشكى.. ونقل التكنولوجيا.. وطرايش العسكر!

- شقيقى وأنا دخلنا إلى عالم النهر شبابا.. واحد من بوابة الماء والآخر من بوابة الأرض !
- وحدة جنوب وشمال الوادى تحققت بالمراكب الشراعية !
- الشام ستصبح صحراء، وأقترح على أهلها أن يصرفوا أنظارهم عن الزراعة، ويتأملوا ما تفعله إسرائيل بفك الكيبوتزات وبيعها !
- الصراع على المياه هو بيننا وبين أنفسنا. أما الصراع مع إسرائيل فهو حضارى !
- المثقفون منعزلون عن السلطة ومنشغلون بمعاركهم البيئية !
- مشاجرة التطبيع انصرفت إلى الجانب الخاطى من القضية !
- (كل واحد فى حاله) هو الوصف الدقيق لحال الجماعة الثقافية فى مصر !
- ليست عندى مشكلة هوية، وأرى الحضارة الغربية (إنسانية) !

- قلت لكمال أبو المجد، لماذا تتكلم عن علماء القرن العاشر بوصفهم رموزا للحضارة العربية، إن الغرب أولى بهم لأنه حماهم ودفعهم لاستكمال المسيرة !
- شاهدت (قواعد الارتباط)، فوجدت أن من يجب أن يغضب هو الأمريكان وليس العرب !
- الثورة التكنولوجية هي أفضل ما يجعل النظام العالمي الجديد ديمقراطيا !
- الأفكار المعلقة تحرم صانع القرار من الاطلاع على البدائل لقراره !
- قلت لزكريا محيي الدين، توشكى منخفضة عن مستوى بحيرة ناصر فتم تقليل التخزين من ١٨١ إلى ١٧٨ مترا !

«فى ١٣ مايو.. منذ يومين.. أتم د. رشدى سعيد العلامة الجيولوجى البارز عامه الثمانين.

ومثل هذه الرموز العلمية الكبرى تختلط فى رؤيتنا لها حدود الخاص/ الشخصى، بحدود العام/ الوطنى.

ومن ثم، فقد كان عيد ميلاد الرجل مناسبة حقيقية لتأمل كبير، ونقطة زمنية رمزية تتجمع حولها الذكريات والآراء، ونتحلق فيها جميعا لنتناقشه.. بل ولنشاكسه، كما يسمح، أو كما يحب!! فى رؤاه ومواقفه، وفى شئون الوطن وشجونه.

وفى هذا الحوار تجلت طبيعة الرجل العلمية، التى لا تسمح بالمداراة، أو التجمل.. بل كانت جملة كما كانت أحكامه، أشبه بالقوانين القاطعة، وليدة التأمل الطويل، والتجريب الطويل أيضا.

بدا الرجل مختلفا فى بعض المواقف، ومعارضاً فى بعضها الآخر، ولكن من على أرضية شديدة الوطنية، ينسج عليها - وعبر هذا الحوار - لوحة من لوحات العشق لمصر (الأرض أولا) طبقة فوق طبقة، و (النهر ثانيا) نقطة إلى جوار نقطة، و (البشر ثالثا) قلب إلى جوار قلب، وعقل فى مواجهة عقل!

ومن بوابة هذا الحوار تحدث د. رشدى سعيد عن النيل، وظاهرة العداء للحضارة الغربية، ونقل التكنولوجيا، وتوشكى، وعلاقة المثقف بالسلطة، وعلاقة المثقف بالآخر، وعن مشاجرة التطبيع فى مصر وفى العالم العربى.

وقد كان فيها جميعا ينطق بجمل ويطلق أحكاما تبدو كالقوانين القاطعة، وليدة التأمل الطويل، والتجريب الطويل أيضا.

تتفق معه . . تختلف معه . . تصف إلى جواره . . تصف في مواجهته، في عامه الخمسين، في عامه الثمانين سيظل هو . . كما عرفناه . . وكما عرفته الحياة الأكاديمية، و الحياة العامة في مصر .

درة علمية متألقة . . وعاشق من عشاق الأرض والنيل والبشر في مصرنا الحبيبة» .

وفيما يلي نص الحوار :

● تقول في مقدمة كتابك «نهر النيل»: إن النيل قد فتتك في شبابك،

ثم إن إهداءك الكتاب إلى شقيقك المهندس نجيب فهمى سعيد

يتضمن إشارة إلى أنه قضى عمرا في خدمة الري في مصر . . ما

الذى خلق عند هذه العائلة وعيا عميقا إلى هذا الحد بالنهر،

وبالدور الذى يلعبه فى صوغ حياة البشر على شاطئيه؟

○ النيل يشكل وجدان أى إنسان يعيش فى مصر . .

بداية . . هو نهر جميل .

وثانيا، فإن ما جعلنى أغوص مهتما فى أمره، وفى تاريخه، وأفحص مقلبا

ظواهره ومآثره، كان عين ورؤية الجيولوجى، التى أخذت أرى بها مستقبلى منذ

بداية حياتى .

لو نظرت إلى خارطة شمال إفريقيا بتدقيق، ستجد أن هذا النهر هو الوحيد

الذى استطاع أن يأتى ببعض المياه من وسط إفريقيا إلى البحر المتوسط .

كقاطرة عملاقة فعلها . . ولم ينجح أى نهر آخر فى أن يفعلها .

ليس هذا فقط . . ولكنه نهر غريب، لأنه مضى فى مسيرته - هذه - مسافة

طويلة جدا لا تصلها أية نقطة من المياه، ومع ذلك استمر فى طريقه إلى أن

وصل مصبه فى المتوسط .

١٢٠٠ كيلو متر عبرهم هذا النهر من دون نقطة مياه إلى أن وصل إلى المحطة

الأخيرة فى مسيرته .

● هذا فى إطار الظواهر الطبيعية والمناخية، ولكننى كنت أسأل عن الظاهرة الوجدانية التى شكلت اهتمامك واهتمام أخيك؟

○ الظاهرة الوجدانية، هى الالتصاق بأرض مصر، وربما أكون قد دخلت مهنة الجيولوجيا لهذا الغرض، وأنا أعتقد أنها من المهن الجميلة جدا التى تدفعك للاقتراب من الأرض ومن الطبيعة .

أما شقيقى فقد دخل إلى النيل من بوابة هندسة الري، فقد كان مهندسا مدنيا، ثم مهندسا للرى، وهو محب عاشق للنيل، يعرف النهر - ربما أكثر منى -!

.....

حين أتحدث عن النيل تعبر بذهنى أخيلة وأطياف عن شكل هذا النهر فى الصعيد، حيث بلدنا (القوصية)، وبلدة زوجتى (أبنوب) عند مدخل محافظة أسيوط يتسع مجرى النهر وواديه، ويصبح وكأنه يفضى إلى عالم رحب كبير . . . وتترامق المدينتين واحدة على هذه الضفة، والأخرى على تلك .

أتذكر هذا المشهد، على الرغم من أننى كنت من مواليد القاهرة، إلا أننى كنت أعاود الصعيد مع والدى، الذى كان موظفا بالسكك الحديدية، وانتقل إلى القاهرة .

● هل تعتقد أن هناك تشابها ما بين شريط السكك الحديدية، الذى كان القطار يمشى عليه، والمنازل والمدن التى تشيد على جانبيه، وبين النهر الذى يشق مصر (طوليا) لتنشأ المنازل والمدن على جانبيه أيضا؟

○ هذه صورة أمريكية . . بالضبط مثلما فعل القطار فى أمريكا . الحقيقة أننى لم أفكر فى مثل هذه الفكرة أبدا، لأن مدن مصر قديمة للغاية،

قبل السكك الحديدية، فمعظمها نشأ بطريقة أخرى.

على التلال العالية، وهى فى العادة جسور النهر القديمة، لأن الناس - كما تعلم - تعيش فى السهل الفيضانى القديم لنهر النيل، ولم نخرج خارج هذا السهل إلا قريبا جدا من الناحية التاريخية.

وكانت المياه تفيض على هذا السهل ليصبح بحيرة تقريبا.. فأين يعيش الناس؟ لقد كانوا يعيشون فى المناطق العالية، أو على أطراف سهل النهر المتاخمة للصحراء، وهو أمر نادر.

المناطق العالية هى جسور النهر القديمة، لأن النهر كان يتحرك ومازال يتحرك، لولا أننا - إلى حد كبير - قد نجحنا فى تقييده وتكبيله تحت عنوان: «تهذيب المجرى» وما إلى ذلك.

وعندما يتحرك النهر يترك جسرا وراءه، وهذا الجسر العالى يصبح المكان المثالى الذى يقصده الناس ليسكنوه.

من هنا، فقد وصف هيردوت مصر وصفا دقيقا للغاية، حين يقول إنها وقت الفيضان تصبح كبحر إيجيه، وأن القرى المصرية تصبح لهذا البحر بمثابة الجزر.

وقد كان لهذا الوضع فائدة أخرى بديعة، ألا وهى العبقرية المصرية فى صناعة الشراع وصناعة المراكب، إذ لم يك بمقدور المصريين أن يعملوا إلا عن طريق المراكب، لأنهم كانوا - كما قلنا - كالعائشين فى جزيرة لا يستطيعون أن يستسلموا لفكرة أن يكونوا معزولين.

لقد وحدت صناعة المراكب والشراع نهر النيل، فعندما يكون لديك مركب فى النيل تستطيع أن تصل لأقصى الشمال يدفعك تيار المياه، ثم يعيدك الشراع عن طريق الريح الشمالى إلى الجنوب!

● أعود إلى شقيقك الذى أهديته كتاب النيل بمناسبة بلوغه الثمانين..

نفس العمر الذى تبلغه هذه الأيام؟

○ نجيب كان - بالنسبة لى - أستاذ ، وصديق . . وكل شىء .
عزيز علىّ جداً . . كان يكلمنى فى المسائل الفنية (عن النهر)، ولازلنا نتكلم،
لكنه الآن مريض جداً.
كانت الفكرة الأساسية لحديثه عن النيل، هى كيفية الاستفادة منه .
والاستفادة من النيل تعنى فى الواقع الاستفادة من أرض واديه .
لقد أتقن الفراعنة هذه العملية، وبكل أسف فإن الأبناء ليس لديهم نفس
الإدراك لأهمية أرض الوادى .
نحن نبدد الكثير من الأراضى الزراعية الجميلة التى نملكها .
أرضنا هذه فريدة ولا تعوض، وسأحكى لك كيف .
أنا أعيش فى أمريكا، وأحب أكل الجرجير، فلما أشتري بذور الجرجير من
مصر، وأزرعها فى الأرض هنا، لا يكون لها نفس الطعم الجميل، وهكذا فى
المانجو، أو فى أى شىء .
استخدام الأرض فى أشياء غير تلك التى تعطيك فيها نتائج لا مثيل لها، هو
تبيد لاستخدام الأرض .
نجيب كان مهتماً بالزراعة، ومحباً لها مثل كل المصريين .
وربما كان أول ما جعلنى أحب واشنطن أنها تنير فى فصل الربيع وتصبح
كرنفالا من الألوان، متأثراً بهذه السمة المصرية الأصيلة التى تحب الزراعة وكل ما
هو زهور أو ثمار أو مساحات خضراء .

المياه !

- المياه موضوع هذا القرن.. ماهى قراءتك لحجم تأثير هذا الموضوع على مستقبل منطقتنا؟ وما هى الأرجحية التى تعطىها للعوامل الأيكولوجية، أو الجيوبوليتيكية فى تشكيل أرضية التعاون أو الصراع فى هذه المنطقة؟

○ هذه قضية مهمة جدا، وخصوصا في منطقة الشام.

الشام القديم (سوريا - لبنان - فلسطين . . و حاليا إسرائيل)، وهذه المنطقة ستأثر أكثر من مصر بموضوع أزمة المياه. والحقيقة أن كل مناطق العالم ستأثر.

ولكن الشرق الأوسط سيكون أكثر المناطق تأثرا، ومنطقة الشام ستكون الأكثر تأثرا في الشرق الأوسط.

بلد مثل الأردن أو فلسطين أو حتى إسرائيل لديها أزمة مياه خانقة، وستزيد في المستقبل.

أنا لا أرى حلا . . الصورة قائمة . . كمية المياه قليلة جدا على عدد السكان، وعلى المعدلات الكبيرة في التزايد السكاني Population growth الطبيعي، أو وليد الهجرات. فأنت كما ترى سعىَ الإسرائيليين لدفع هجرات كثيرة إلى إسرائيل من روسيا ومن الحبشة وغيرها، وانظر - كذلك - لهجرة أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى الأردن، بسبب الصراع على الكويت في مطلع التسعينيات. العدد يزيد والموارد المائية محدودة.

ليس لديك سوى نهر واحد في هذه المنطقة، هو نهر الأردن وفروعه، بينما - حتى - المياه الجوفية محدودة، والمنطقة الوحيدة التي تصلح لنشأة نشاط زراعي معتمد على المطر فيها هي شمال غرب إسرائيل وجنوب لبنان، التي فيها مطر أكثر من ٤٠٠ ملليمتر (فما هو أكثر من ٤٠٠ ملليمتر هو الذي يستطيع الزراعة على المطر. أما ما هو بين ٢٠٠-٤٠٠ ملليمتر فيستطيع أن ينشط في الرعي . . وأقل من هذا - في الواقع - لا يستطيع فعل شيء).

المناطق التي تزرع على المطر تزرع مرة واحدة، ولكن لديها ميزة عن الذي يزرع بالرى، ويحتاج لأن يشق ترعا وقنوات، وينشئ وزارة رى، ووزارة كهرباء، ويرفع مياه.

إذن الشام يزرع فى مناطق قليلة تتوافر فيها كمية من المطر تصلح للزراعة،
والباقى - كما قلنا - مناطق رعوية، ومعروف أنها - تاريخيا - ومنذ عيسى عليه
السلام وحتى الآن - مناطق رعاة يتنقل فيها البدو وراء الكلا !!

أين المشكلة إذن؟

المشكلة هى أن بلدا قويا كإسرائيل سيأخذ المياه لنفسه .

الموضوع عافية (يضحك).

ستمع الفلسطينين من أن يأخذوا نصيبا عادلا من المياه، إنما ما أريد أن أقوله
هو: إنهم حتى لو اقتسموها بالعدل والقسطاس، فسوف يكون الطرفان فقراء فى
المياه .

إن الأطراف الشرق أوسطية أشبه بالإخوة فى عائلة فقيرة جدا، يتشاجرون
على الميراث طوال الوقت، إلا أنهم بعد توزيع الأنصبة سيكونون شحاذون
أيضا!!

وأنا لا أرى أية طريقة تقليدية أو غير تقليدية لحل هذه الأزمة على الإطلاق .

فأما عن الطرق التقليدية (الخزانات - السدود للأمطار)، فسوف توفر بضعة
ملايين من الأمتار المكعبة، لكنها لن تخترق المشكلة فى العمق وتحلها .

أما الطرق غير التقليدية (تحلية مياه البحر) فهى غالية فى ذاتها، وحتى إذا
نجحت فى إنتاج المياه بطريقة رخيصة جدا، فإن نقلها يتكلف أموالا باهظة .

وخذ عندك - مثلا - بلد مثل الأردن، الذى ليس لديه بحر إلا فى العقبة، فإذا
ما نجح فى تحلية البحر هناك، فإن عليه نقل المياه، ودفعها، ورفعها إلى مدن مثل
عمان البعيدة جدا عن البحر، وهذا غير عملى بالمره .

تحلية المياه قد تصلح لحل مشاكل محلية صغيرة مثل توفير المياه للقرى
السياحية . أما الزراعة أو الاستهلاك العمومى فهذه مسألة صعبة جدا .

أنت ستكلف تحلية مياه البحر (١٠ آلاف جنيه للمتر المكعب)، وعندما تريد الزراعة أقول لك: لا توجد زراعة أو أرض تزرع بأقل من ٥ آلاف متر مكعب، يعنى تحتاج مياه تكلفتها ٥٠ ألف جنيه للقدان، وهذه تكلفة غير عملية على الإطلاق.

منطقة الشام ستصبح صحراء، والذي أقترحه على أهلها أن يصرفوا أنظارهم عن الزراعة، ويتأملوا ما تفعله إسرائيل الآن حين تفك الكمبيوترات وتبيعها.

أنت تذكر أن فلسفة الحركة الصهيونية فى بدايتها، تقوم على فكرة أن اليهود تركوا فلسطينيين لأنهم انصرفوا عن الزراعة. ولذلك، فإن مفكرى الحركة الصهيونية - فى البداية - كانت فلسفتهم أن الزراعة هى التى تربط الإنسان بالأرض، ومن ثم فإن إعادة اليهود إلى الفلاحة هى ما سوف يربطهم بالأرض ويشبثهم. أما نحن فقد تركنا الزراعة وعملنا تجارا وانجرفنا فى الدايسبورا إلى أوروبا.

تاريخيا الحركة الصهيونية حين اجتمعت فى لوزان لترتيب الأوضاع بعد الحرب العالمية الأولى، بعد وعد بلفور، وأرادوا رسم حدود فلسطين لتشمل كل منابع المياه، وكان من ضمن ما أرادوا ضمه للخرائط، نهر الليطاني، ولكن - عمليا - كان حلمهم هو المياه والزراعة، ولكن لأنهم - بكل أسف - أسبق منا، فقد فهموا أن مسألة الزراعة مستحيلة فى أرض صحراوية.

على أية حال ما أود أن أقوله هنا: إن العرب كانوا على امتداد تاريخهم فى فلسطين يزرعون ما يسمى: «زراعة كفاف ورعى». أما اليهود فكانوا يريدون الانتقال من هذا النوع إلى الزراعة المتقدمة اقتصاديا، وكانوا يريدون المياه، ويعتقدون أن هناك مياه فى المنطقة، ولكن الحقيقة أنهم اكتشفوا كل الحقائق السابقة وبدأوا فى صرف أنظارهم عن الزراعة وبيع الكمبيوترات.

وفى هذا الإطار سأذكر لك رقم عن مصر قد يدهشك.

نحن فى مصر نزرع باثنين وأربعين مليار متر مكعب من المياه، لكى تحصل

على دخل حجمه ٤٢ مليار جنيه . . . يعني كأن المتر المكعب يكفل دخلا قدره جنيه واحد .

يعنى لكى نأتى بالمياه اللازمة نقيم الخزانات ونعقد المعاهدات مع أوغندا، وندرس فنيا موضوع جبل الأولياء، ولدنيا وزارة للرى، ووزارة للزراعة، ومحطات رفع كهرباء . . . كل هذا كيما نوفر المتر المكعب، الذى يأتينا بدخل قدره جنيه واحد .

● فإذا ما اختفت المياه كأساس للصراع . . . فيم سيكون الصراع إذن؟

○ الصراع حضارى . . . يشمل كل شىء .

صراعنا حول المياه، هو بيننا وبين أنفسنا .

لا بد أن يأخذ العرب العبرة من إسرائيل . . . إسرائيل - نفسها - تنتقل من الزراعة، وعندما تدرس الاقتصاد الإسرائيلي ستجد ٣٪ فقط من السكان يشتغلون بالزراعة (وهى نسبة تكاد تكون مماثلة لأمريكا)، ومع ذلك فهذه النسبة تقدم ١١٪ من الدخل القومى، و ١٨٪ من الصادرات .

لقد قدم الإسرائيليون زراعة علمية متقدمة جدا لغرض التصدير، الذى هو - أصلا - بذور مهجنة، وتركوا لنا فى العالم العربى أن نزرع الطماطم والخيار، ليقوموا باستيرادها منا .

والحقيقة أن الإسرائيليى حين يستورد طماطم خام، فهو يستورد مياه !!

بالضبط مثل أى دولة تستورد منا أنجوتس الألومنيوم، فهى - فى الواقع - تستورد (طاقة) !

فبدلا من أن يصنع الطرف الآخر الأنجوتس التى تستهلك كهرباء كثيرة، فإنه يستوردها منك، ويحصل على القيمة المضافة .

وهذه هى النقطة التى كنت أثيرها كثيرا فى مصر، فنحن لا نعرف كيف نستغل

مواردنا وصناعاتنا، فبدلاً من تصدير الأنجوتس كما كانت شركة الألومنيوم في نجع حمادى تفعل.. أقوم بتصديرها مصنعة.

الوحدة!

● في شخصية مصر يرى جمال حمدان أن مصر من أعلى حوض عند جبل السلسلة في أسوان، إلى أدنى حقل في «الجزيرة الخضراء» عند المصب، هي سلسلة متصلة الحلقات متكاملة هيدرولوجيا ووظيفيا، يتفاعل الماء بين أجزائها المختلفة، كما لو في أوان مستطرفة، فلا يمكن أن تخطط لمشاكل الماء فيها تخطيطاً محلياً، بل لابد أن تعالج كوحدة هيدرولوجية واحدة، وإلا اختل فيها ذلك التوازن الإيكولوجي الحرج الدقيق، وبالتالي اختلت فيها عناصر الحياة، بمعنى آخر أنها غير قابلة للتجزئة، ولا يمكن أن تدار أو تحكم كعدة وحدات مستقلة»..

وفي كتابك «نهر النيل» تشير إلى أن اتصال النهر مع إفريقيا أصبح ضعيفا ومتقطعا في الأربعمئة ألف سنة الأخيرة.. هل تعتقد أن لهذا علاقة بضعف البعد الإفريقي في الشخصية المصرية، وبعدم ميل المصريين لأن يمدوا أو اصر ارتباط حضارى وإنساني حقيقية إلى الجنوب؟.. بعبارة أخرى هل أصبحت هذه الوحدة المركزية التى يخلقها النيل فى مصر عوضاً عن الوحدة التى يمكن أن يخلقها النيل فى دول الحوض؟

○ عندما تطالع نشأة الحضارة المصرية، ستجد أن ما كنت تذكره فى سؤالك

صحيح.

كانوا خائفين منا.. وكنا خائفين منهم أكثر.

ولكن الدنيا تغيرت.. وميكانيزمات العالم تغيرت، ولا نستطيع أن نقول إن ما

حدث فى العالم يمكن تكراره.

الجنادل التى يتكلم عليها جمال حمدان، مثل جبل السلسلة وهو مضيق صغير يضيق النيل فيه جدا، ولكن بعد ذلك يتسع النهر وتصبح الحركة فيه سهلة، رائحة غادية، باستخدام الشراع كما ذكرنا.

الجنادل جعلت الحركة والاتصال فى درجة كبيرة من الصعوبة مع إفريقيا، وقد كان هذا الكلام فى الماضى. أما الآن فهناك سيارات وطائرات وقطارات.

● د. رشدى.. تظل حركة البشر محكومة بما هو أكثر من السيارات والطائرات؟

○ لقد كسر محمد على هذا الحاجز بين مصر والسودان. أما التعويق الجغرافى، فقد ظل قائما إلى أن كسرت وسائل النقل الحديثة، ففى مذكرات تشرشل قال إنهم حين أرادوا أن يتغلبوا على حركة المهدي، كان من أصعب ما يكون أن يذهبوا إلى السودان عبر النيل، ولذلك أنشئت شركة سكك حديد حلفا/ أبو حمد لهذا الغرض ولتفادى جنادل النيل.

النوبة كانت منطقة جرداء، لعبت دورا مهما فى حياة مصر، إذ حققت حمايتها من كل أمراض إفريقيا الإستوائية، لأنها كانت حاجزا أو بمثابة منطقة عازلة Buffer Zone، تعقم أجواء وبيئة مصر من التسي - تسي والملايا.

● ولكنها عزلت ضمن ما عزلت هذا المؤثر الإفريقى فى الشخصية الوطنية أيضا؟

○ ربما كان هذا أيضا تاريخا وانقضى.

فالحركة الآن سهلة جدا.

قدما فى هذه المنطقة أو فى الدولة الوسطى، كانت هناك منطقة اسمها «سمنا» - بكسر السين - وقد كتبت عنها فى كتاب النيل، وهذه المنطقة كانت أول منطقة فى التاريخ تشهد استخدام باسبور وفيزا أو تأشيرة دخول، فلم يكن هناك من

يستطيع دخول مصر جنوبا إلا بتأشيرة دخول يبرزها على بوابة سمنا، وهى عبارة عن قلعتين فى مواجهة بعضها البعض، واحدة ناحية الشرق، والأخرى ناحية الغرب، يعنى شديدة الشبه ببوابات وحواجز الحدود الحالية فى كل مكان.

وقد اختار المصريون القدماء إقامة هذه البوابة فى أضيق منطقة فى النيل، وكأن هناك سدا طبيعيا فيها يمنع التسلل.

هذا يقول إنه باستمرار كان هناك خوف من إفريقيا. أما الذى ساعد على الاقتراب والتمازج، فهو - كما ذكرت - وسائل الانتقال الحديثة.

ثمانينيات !

● د. رشدى.. على عتبات الثمانين، أظنك قادر على استقطار حكمة هذه السنين وبلورتها فى صياغات أشبه بالقوانين الفلسفية، وفى ساحتين أظننى - مرة أخرى - أحتاج فيهما إلى التعرف على حدود رؤيتك (ساحة حوار المثقف مع السلطة) و (ساحة حوار المثقف مع الآخر).. فانظر ماذا ترى؟

○ لا أعتقد أن هناك جسور قوية أو حتى موجودة بين المثقف والسلطة فى كثير من بقاع العالم العربى.
السلطة تخاف من المثقف.

السلطة فى العالم العربى أيضا لا تعرف أهمية المثقف، وتنظر إليه بوصفه غير مطيع، و «غلباوى».

ثم إن السلطة فى معظم أجزاء منطقتنا ليس لديها الأفق الواسع الذى يسمح بالنظر إلى قدام لمعرفة ما سوف يحدث بعد ١٠-١٥ عاما، فهى فقط مشغولة بحل المشاكل الجارية أو الحالية، وعندما يتحدث المثقفون عن المستقبل، تنظر إليهم هذه السلطة بوصفهم حاملين غارقين حتى آذانهم فى الخيال.

وأذكر أننى قابلت الرئيس عبد الناصر مرة، فمازحنى قائلا:

«كل ما نجيب لك وزير تعمل مشاكل معاه»، فقلت له: «ياريس ليس لدى مانع في أن أعمل مع أى وزير شريطة أن يكون أحسن منى كيما أستطيع أن أتعلم منه شيئاً!!»

على أية حال، فإن بلادنا مليئةً بالمشاكل اليومية الصغيرة جداً، التي لا تسمح للناس، أو لصانع القرار بالحديث عن رؤية مستقبلية، فالجميع مستهلكون في هذه المشاكل اليومية الصغيرة التي تسد الأفق وتمنع الوصول إلى الرؤية الواسعة، الشاملة، الكبيرة.

وأمام هذه الخلفية.

أو فوق هذه الأرضية تقل أهمية المثقف، ويتضاءل حدود دوره المفترض إلى حد كبير.

● ما تقوله عن علاقة المثقف بالسلطة، هو ما أراه - بالضبط - في علاقة المثقف بالآخر؟

○ جزء مما جرى في العالم العربي أن ابتعاد المثقفين وانجرافهم بعيداً عن السلطة التي لا تريدهم، جعلهم ينصرفون إلى مشاجراتهم البينية المتوحشة!

عزلة المثقف - هذه - أدت إلى فقدانه التعبير عن نفسه، وعدم القدرة على إطلاق طاقاته.

جزء مهم جداً في تقدم أية أمة أن تطلق طاقاتها، حتى لو أخطأ أفرادها، لأنها إذا لم تُطلق فسوف يعيش المثقف في حالة مونولوج، وليس ديالوج.

وضع (كل واحد في حاله)، سيؤدى إلى أن تسير الخيوط كلها بالتوالى وليس بالتقاطع، بمعنى آخر سنجد أنفسنا أمام (قتل) وليس نسيج!!

● ألم يلفت نظرك - يا دكتور رشدي - طوال العقد الماضى مثلاً أى حوار من أى نوع بين المثقفين؟

○ أبدا.. كل ما ألاحظه أن هؤلاء المثقفين يسرون وراء شعارات !!

● تقصد الجمود الفكري؟

○ ليس الفكري فحسب، ولكن حتى الجمود السياسي أو الحركي، فخذ عندك - مثلا - قضية التطبيع، التي انشغل بها الذهن الثقافي والسياسي في مصر والعالم العربي، طوال العقد الماضي.

ستجد أنهم ركزوا على من ذهب إلى إسرائيل، ومن لم يذهب، وهي قضية لا أهمية لها على الإطلاق، فهي مسألة شخصية (واحد يريد أن يذهب.. والآخر لا يريد أن يذهب) !

بينما أرى أن قضية التطبيع إذا أردنا إثارتها فيجب أن تكون في موضوعات مثل: (بيع الغاز من عدمه، أو نقل الطاقة إلى إسرائيل أو عدم نقلها، أو أبيع لإسرائيل أنجوتس الألومنيوم لتبيعه لي بعد ذلك سلعا مصنعة أم لا) !
هذه هي القضايا الأساسية.

أما مسألة واحد يسافر أو لا يسافر فهذا هراء.

المثقفون لم يناقشوا الجانب الحقيقي في القضية، لأنهم يريدون التقرب إلى دوائر معينة لهم فيها منافع.

● يا دكتور رشدي المنافع - الآن - تتحقق في خارج السلطة وليس في مربعها؟

○ غير ممكن !

● لا.. ممكن.. فهي تتحقق الآن عبر رجال أعمال، والمثقفون المصريون والعرب استبدلوا السلطة بمعناها السياسي الكلاسيكي المعنوي الذي كنا نعرفه، بسلطة المال أو سلطة رجال الأعمال؟

○ السلطة أيضا مهمة يا دكتور عمرو. . بل ومهمة جدا، وعليك أن تبحث
وسط تجمعات المثقفين عن هذه الأهمية وتلك المنافع (يضحك) !!

عولة!

● فى كتابه آفاق العصر، يقول الصديق الدكتور جابر عصفور:
«يبدو أنه بقدر تصاعد خطى النزعة الكوكبية، أو تسارع إيقاعها،
تتصاعد خطى النزعات المضادة، ويتصاعد إيقاعها فى آلية أكثر
تعقيدا من القانون الذى يقول إن لكل فعل رد فعل، يساويه فى
القوة، ويخالفه فى الاتجاه. وأحسب أن نبرة النزعة التى تدعو إلى
وحدة إنسانية جديدة تقوم على التنوع وتفتنى بالاختلاف، تنطوى
على نوع من الاستفزاز لنزعات المحلية أو الإقليمية أو العنصرية،
وتدفعها إلى اتخاذ مواقف دفاعية على مستويات شعورية أو غير
شعورية، كأنها رد الفعل المنعكس الشرطى حفاظا على معنى من
معانى الهوية الذاتية من ناحية، وخوفا من الضياع فى محيط
أوسع من ناحية أخرى». .. كيف ترى إشكالية الهوية، وأنت بحكم
الهجرة فى اثبتاك يومى معها؟ ثم كيف ترى نفس الإشكالية فى
ظل قيم العولة، وأنت بحكم الهجرة إلى أمريكا - بالذات -
شديد الاقتراب من تأثيراتها؟

○ ليس عندى مشكلة هوية.

طوال عمرى أو من بوحدرة الحضارة.

كنت أحضر مؤتمرا أقيم فى جامعة القاهرة بعنوان: مؤتمر جيولوجيا العالم
العربى، وطلبوا منى - على غير ترتيب - أن أراس الجلسة الأولى الاستهلالية،
فجلست على المنصة، وقدمت أحد زملائى القدامى، وإذا به يلقي محاضرة
طويلة عن اهتمامات «إخوان الصفا» فى علم الجيولوجيا.

وكنت قد كتبت ورقة علمية فى هذا الموضوع عام ١٩٥٠ (أى صدرت منذ

٥٠ عاما) . . وقد كان الرجل أمينا وأشار إلى ورقتي، ولكنه عندما تكلم أثار في نفسي ذكريات نصف قرن مضى، عندما كانت طالبا في جامعة هارفارد، أستمع إلى محاضرات بروفيسور مهم جدا في علم الجغرافيا اسمه «كير كبراين»، وكلها كانت في معنى (كيف تشكلت ظواهر الأرض).

وكانت محاضراته جميلة جدا، وقد أنشأوا جائزة باسم هذا الشخص في الجمعية الجيولوجية الأمريكية.

وفي إحدى الجلسات التي دعانا إليها كير كبراين في منزله لتناقش وتبادل الآراء، قلت له: «اسمع . . كل ما تقوله سبقك إليه أناس من القرن العاشر»، فلما تساءل بقوة، قمت بترجمة أربع صفحات من كتاب إخوان الصفا، وقدمت لهم، وأعطيت الدراسة للأستاذ، فسر سرورا عظيما، ونشرها في واحدة من كبريات المجلات العلمية الكبرى، والتي لم يك ممكنا أن ينشر فيها طالب مثلي وقتها.

وقد وصلت - عبر هذه الحادثة - إلى أن كير كبراين هو الوارث الحقيقي، لحضارة العرب والمسلمين، أما نحن فلم نرث شيئا، بالعكس لقد اضطهدنا إخوان الصفا، ومن تبقى منهم رحل إلى أوروبا، التي أخذت منهم علمهم، وانطلقت بهم، وانطلقوا بها.

ولذلك أنا أعتقد في وحدة الحضارة، وأنه من الخطأ أن نسمى الحضارة الغربية (غربية).

هذه حضارة بشرية.

وجميع الناس شاركوا فيها بما فيهم أنا، ولذلك ليس عندي شعور بالنقص إزاءها On contrary. وعلى العكس، فإن الغربيين سرقوها، فكانوا أذكاء لأنهم أخذوها ومضوا بها، وكنا خائنين لأننا تركناها.

● من أين - إذن تأتي هذه المقاومة في العالم العربي للحضارة

الغربية؟

○ لقد وجدت صديقي العزيز د. كمال أبو المجد، يكتب أفكاره في دافوس في إحدى المجلات الثقافية، وهو يريد أن يتكلم عن الحضارة الإسلامية، فلا يجد شيء يتحدث فيه إلا علماء القرن العاشر.

بالمههم.. لم يعد لنا علاقة بهم..

لقد رميناهم.. وطاردناهم.. وكسرناهم.. وذبحنا نصفهم، وكان الغرب هو من احتضنهم، وهو الذي من حقه أن يتكلم عنهم وليس نحن! جزء من المقاومة يأتي من إنكار حقائق تاريخية أو الجهل بها.

والجزء الآخر هو الإحساس بالضعف والخوف والشعور الدائم بضرورة الدفاع عن النفس حتى إزاء ما لا يستوجب الدفاع.

وستجد فيلما مثل قواعد الارتباط Rules of engagement، أصبح مثارا لضجة كبرى أثارها العرب، وقد ذهبت لأشاهده لكي أرى ما الذي أغضب العرب، فوجدت أن الطرف الذي يجب عليه أن يغضب هو الأمريكيين!!

فقد أظهر الفيلم سفيرهم بوصفه كاذب، ومستشار رئيسهم للأمن القومي على أنه غشاش.

لقد شتم الفيلم الأمريكيين أكثر بكثير مما يمكن أن تستخلصه منه بأنه شتم العرب.

ومع ذلك فالأمريكيين لم يغضبوا.. على حين غضب العرب جدا.

هذا النهج خطير.

ولعلك كنت تلاحظ أنفا في مصر - مثلا - نرفض مناقشة مشاكل أزمات طوائف المجتمع، أو انحراف قطاعات منه، وكأنه ليس لدينا أية مشكلة.

المبالغة في الحساسية، والرغبة في الدفاع هو جزء من الضعف والخوف،

وعدم القدرة على المواجهة.

الضعف يعنى إخفاء الأزمات.

لدينا برلمان منذ عام ١٩٢٤، ومع ذلك لم يقلل إن وزيرا واحدا كان مخطئا .
طوال عمر هذا البرلمان.

أشعر بوحدة الحضارة وبأننى جزء من حضارة أكبر، ومع ذلك فأنا رجل شديد
الوطنية، ولا أجد أى تعارض فى هذا، فعلى الرغم من أننى أعرف أن الحضارة
واحدة، فأنا أعرف أيضا أن هذه الحضارة ليست كلها أشياء جميلة . . ففيها
استعمار، وفيها أناس يحاولون استغلال الآخرين (ليس فقط من خلال علاقة بلد
قوى ببلد ضعيف، ولكن - أيضا - من خلال علاقة الناس ببعضهم البعض فى
بلد واحد) !

لذلك أنا أريد لبلدى ولمجتمعى أن يتحدث مع العالم بالكثير من القوة والثقة
والندية.

هناك أشياء عظيمة فى (العولمة) أريد لمصر أن تستفيد منها، وعلى رأسها الثورة
التكنولوجية القائمة.

الثورة التكنولوجية هى أفضل ما يجعل النظام العالمى أكثر ديمقراطية !
المعلومات على المشاع.

أى بلد صغير عنده العزيمة والإرادة الطيبة والقدرة على تغيير نفسه، يستطيع
أن يدخل العالم الجديد . . المعلومات موجودة، ورؤوس الأموال اللازمة لعملها
بسيطة جدا.

لو أن مصر تريد أن تحقق التنمية التكنولوجية، فيمكنها أن تفعل ذلك وحدها
مثل الهند.

كل ما نحتاجه مجموعة شباب متفوقين، ومجموعة من أجهزة وأنظمة
الكمبيوتر.

والأسرار الموجودة ستكون فى متناول أيديهم، والأسرار غير المطروحة للعلن، لن يعطيها أحد لنا فى جميع الأحوال.

الشطارة أن نبني - نحن - منظومة أسرارنا الذاتية.

● د. رشدى.. أرجو أن تتوقف هنا قليلا، فمثل هذه الموضوعات ينبغي مناقشتها بترو.

فاحتواء اتفاقيات نقل التكنولوجيا على برامج للتدريب، هو الذى يكفل بناء القاعدة البشرية، أو الكادر البشرى القادر على تحقيق ما كنت تذكره حالا.

○ لديك فى مصر ١٥ جامعة، وأربع جامعات خاصة وجامعة أمريكية وجامعة فرنسية، بالإضافة إلى الجامعة التى أرسى د. زويل حجر أساسها. كل هؤلاء تستطيع أن تصنع بهم قسما يطور هذا المشروع، أو حتى تقوم بإنشاء أكاديمية.

● كنا نتحدث عن (من أين تأتى المقاومة لأركان الحضارة الغربية فى منطقتنا)..

هل تعتقد أن هناك تأثيرا لتشوش المثل الأعلى الكلاسيكى فى المشروع النهضوى المصرى من فرنسا أولا، ثم أوروبا بعامة، ثم الثقافة الوافدة عبر الهجرات الإقليمية والخليجية المؤقتة، بالإضافة إلى تأثيرات كوكبة من المفكرين ضمنهم من كنت تذكر حالا.

لقد أصبح هناك اختلاط فى المثل الكلاسيكى الحضارى الأعلى، وحتى داخل مجتمعنا نفسه فالمثل الأعلى عند من يسكن قمة الهرم الاجتماعى، يختلف عن المثل الأعلى لمن يسكنون سفح هذا

الهرم.. هل تتصور أن مقاومة الحضارة الغربية هي وليدة هذا الاختلاط؟

○ هو جزء من السبب .

هذا الاختلاط وليد الجهل وغياب الرؤية ولا شيء آخر .

أنا مع الابتكار وضد النقل حتى فى موضوع نقل التكنولوجيا الذى أراه يجسد معنى العلاقة مع الحضارة الغربية أكثر من أى شيء آخر .

سأعطيك مثالا لحوار دار بينى وبين جلال أمين فى إطار المشاكسات الدائمة بيننا، فقد كان يقول لى دائما: ما هى حكاية الهامبورجر الذى يحمله الأمريكان إلى أى مكان فى العالم.. . الفول المدمس أحسن .

فأقول له: «نعم الفول المدمس أحسن، ولكننا لانعرف كيف نسوقه ونحدد مستويات ثابتة لإنتاجه مثل الهامبورجر» .

لا بد أن أرى عناصر الفكرة الأجنبية وأهجن معها .

ولكننا نريد أن ننقل لأن هذا أسهل!

● هل تحدثت مع أية دائرة رسمية عن أفكارك حول نقل التكنولوجيا؟

○ لا.. . لم يسألنى أحد أبدا .

● على ذكر (العولمة)، أظننى بصدد الحديث عن لفظ يجمع بينه وبينها جناس ليس إلا وهو (العولبة)، وأعنى به اطمئنان الذهن العربى إلى صيغ فكرية معلبة وجاهزة.. كيف ترى الالتباسات التى يمكن أن تتولد من وضع عولبة الذهن العربى، فى زمن يتحرك فيه كل شيء (حتى تجديد وبناء الصيغ الفكرية) بسرعة مذهلة، وبقوة - جد - كاسحة؟

○ لو أن هناك عزيمة نستطيع أن نفعليها .

الناس مستعدة والفكرة الحقيقية ليس فيها اختلاف .

نريد أن نضع أيادينا على رؤية حقيقية بدلا من التشوش الذي يقول تارة إننا عرب وتارة أخرى إفريقيين وتارة أخيرة بحر متوسطيين .
ما يمنع هذه الرؤية هو الأفكار الجاهزة «المعولة» .
هي تمثل الحالة الأسهل ..

ولكنها الحالة التي تمثل ظلما بالغا على صانع القرار الذي لا بد أن تكون لديه بدائل، ويحرم من أن يتعرف عليها .

طرابيش !

● رؤيتك عن توشكى أصبحت مبثوثة على كل الأتنية في مصر، هل حاولت - يوما - تأمل وجهة النظر الأخرى المخالفة فيما يخص هذا المشروع.. وكيف رأيتها؟

○ ليس هذا فقط، ولكنني ذهبت لأرى ما يحدث هناك بنفسى .

قليل من الناس يعرفون هذه المنطقة، ولهذا فقد أثار المشروع خيال أناس كثيرين .

أنا أعرف صعوبة هذه المنطقة وصعوبة أن ينجز فيها أى شىء .

حتى - إقليميا - هذه منطقة معزولة، ولو نجحت فيها فسيكون نجاحك - فقط - هو خلق واحة خضراء صغيرة فى صحراء ممتدة من شاطئ المحيط الأطلنطى وحتى البحر الأحمر .

من الصعب تصور عمل إنجاز حضارى هناك .

وقد غضب على الأديب جمال الغيطانى، وقال لى: (كيف هذا؟.. إن توشكى هي أملنا) لمجرد أننى طرحته رأى .

وأنا أفهم وجهة النظر القائلة بفتح آفاق جديدة، ولكننى كنت أرى ما أوضحت لك بشأن هذا المشروع، وقد بدأت الدوائر الرسمية تكتشف صحة ما ذكرت شيئا فشيئا .

لقد ذهبت إلى توشكى زمان وهي أرض بلقع، لقد كانت المكان الذي دارت فيه معركة عظمى بين المهدي وجرينفيل، وكانت مذبحة.

وعندما وصلت إليها في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات وجدت فيها بقايا، وطرايش عسكر وملابس متناثرة على الرمال. ولقد كان لى مع هذه المنطقة تاريخ شخصى.

فقد كنا نحفر فيها، ووجدنا فيها بقايا مستعمرة قديمة فيما قبل التاريخ، وقد لفت ذلك انتباهنا، وبدأنا ندرسها، فوجدنا ارتفاعها منخفضا عما كان مقررا أن يكون عليه خزان السد العالى (بحيرة ناصر).. فانزعجت أشد الانزعاج، فقد كان معنى أن تكون توشكى أكثر انخفاضا عن المكان الذى سنخزن فيه الماء أن تتبدد المياه فى الصحراء إذا زادت.

وذهبت إلى أسوان كى أرى الخرائط، فلم أجد أحدا سوى بعض صغار الموظفين، وكان - وقتها - (١٩٦٤) زكريا محبى الدين رئيسا لوزراء مصر، فذهبت إلى بيته وشرحت له الموضوع فاتصل بصدقى سليمان وزير السد العالى، وقال له: نحن - فعلا - ليس لدينا خرائط، ولكن سنطلب من اليوغسلاف أن يضعوها لنا، ورسمت الخرائط فعلا، وثبت أن هذه المنطقة منخفضة عن خزان السد العالى، فقللوا طاقتها على التخزين من ١٨١ إلى ١٧٨ مترا.

● حدثتني عن البدائل.. قل لى - إذن - ما هى البدائل التى تطرحها بعدما وصل المشروع إلى هذه المرحلة؟

○ أزرعها بالآبار.. فهناك مياه جوفية فى المنطقة أرخص كثيرا.

الناس عندما تكون مشغولة بمشاكل الحياة اليومية الصغيرة لا يرون إلا الصف الأول من أشجار الغابة، فالمهندسون الموجودون هناك مشغولون بالمشاكل الصغيرة التى أمامهم، مثل حل أزمة الترع التى تخترق الصخور، وكيف يتم تبطينها، على حين لم يفكر أحدهم أن هذا كله يمكن حله بالآبار.

● منظر النيل الآن، كمنظر أسد مروض ومستأنس فى سيرك
بالأرياف !

وهو محاط بالنوادى والعمارات ومراسى اليخوت.. وأريدك (من
باب الفن وليس العلم) أن تجيبنى على ما إذا كنت تعتقد أن هناك
وشيجة ما تراها بين حال النهر.. ومزاج الناس فى بر مصر؟
○ مسكين النيل.

جزء من أسباب ما وصل النهر إليه هو فكر الزحمة، الذى لايسمح لأن يكون
لأحد أفراد المجتمع خصوصية تذكر، حتى لو كانت هذه الخصوصية تعنى قصة
حب بريئة بين شاب وشابة، فما بالك بخصوصية النهر نفسه !!

ما حدث هو خصخصة النهر لصالح البنائيات والنوادى والكازينوهات الملاصقة
له، وهى خصخصة خاضعة لقانون اجتماعى يبيح لمن لديه القوة الاقتصادية أو
الاجتماعية أن يأخذ ما يريد.

بالضبط مثلما كنا نذكر عن إسرائيل فى حالة أزمة المياه، أن قوتها ستتيح لها
أن تأخذ ما تريد.

● د. رشدى.. للنيل أغان كثيرة (النيل نجاشى - يا نيل يا أسمرانى -
شمس الأصيل يا نيل). أيها الأقرب إلى ذكرياتك عن النهر.. أم
أنك تحب الغناء للآبار !!؟

○ (يضحك) بل النيل نجاشى يا سيدى.. ولن أغنى للآبار !!